الفصل الأول

التصميم العمراني والناس
URBAN DESIGN AND PEOPLE

مقدمة
Introduction

عنوان هذا الفصل مثير للتساؤل. فهو من جهة، يشير إلى ممارسة عمل فني له قواعده ومبادئه. وهو من من جهة أخرى يدعو، لإشراك الناس بفعالية في عملية التصميم. ويكمن مصدر هذا التساؤل في الصراع بين المهنية مقابل الشعبوية professionalism versus populism. وقد دخل الأمير تشارلز Prince Charles حلبة هذا الصراع حينما أصر على ضرورة المشاركة الشعبية بفعالية في عملية التخطيط والعمارة، داعياً في ذات الوقت للاستلهام من طرق التصميم الكلاسيكي حين قال:

"ينبغي للمباني أن تعكس ذلك التناسق والتناغم. فالعمارة أشبه ما تكون باللغة، فلا يمكن إنشاء جملة بليغة ومفيدة بلغة ما إلا إذا كان لك إلمام واسع بقواعد النحو والصرف الأساسية لهذه اللغة. وإذا حدث وأخلَّ المرء بتلك القواعد، فإن النتيجة ستكون جملة ركيكة ضعيفة المعنى وغير بليغة. فالتصميم المعماري الجميل لابد له من أن يخضع لقواعد متعارف عليها تماما كما هو شأن الطبائع والسلوكيات الحميدة. فالحياة المتحضرة تبعث فينا الإحساس بالإعجاب والرضى بسبب الفهم المشترك للقواعد البسيطة للسلوك الاجتماعي".[1] كما كتب مؤخراً يقول: "ينبغي للناس أن يشاركوا برغبتهم في تحسين محيطهم من البداية. فلا يمكن للمشاركة الشعبية أن تُفرض من علٍ، وإنما ينبغي لها أن تنبع من القاعدة، وللناس أن ينخرطوا فيها طواعية لا قسراً وقهراً".[2]

لم يحسم الصراع بعد حول من تعود له الكلمة الأخيرة، رأي الناس أم قول المهنيين ؟ ولقد برز هذا الصراع جلياً في مدينة بات Bath حينما رغبت مواطنة تقيم في منطقة The Crescent أن تطلي باب بيتها باللون الأصفر. غير أن وجهة نظر المهنيين كانت مع الرأي الذي يطالب بأن تكون أبواب جميع الأبنية المطلة على الشارع التاريخي الشهير جون وود جونيور John Wood Junior ذي التحفة المعمارية الكلاسيكية يجب أن يكون طلاؤها أبيضاً. وجاء تطبيق القانون ليضع حداً أمام هذه المواطنة في التعبير عن ذوقها ويحول دون تحقيق رغبتها.

والهدف من هذا الفصل ليس حسم المشكلة بين رأي أهل المهنة ورأي الجمهور، وإنما إبرازها بوضوح، وطرح الأسس النظرية لإدراج المشاركة الشعبية في عملية التصميم العمراني. ما من شك أن هذا الصراع سوف لن يزول، ولكن تخفيف حدة التوتر بين هذين الموقفين المتعارضين من شأنه أن يفتح آفاقاً جديدة قد تؤدي لتحفيز عملية الإبداع في التصميم.

الإطار التحليلي للمشاركة الشعبية
An Analytical Framework for Public Participation

إن التصميم العمراني أو فن بناء المدن هو الأسلوب الذي يقيم الإنسان من خلاله محيطه المبني الذي يلبي رغباته ويعبر عن ثقافته وقيمه.[3] فالإنسان يعبر عن ذاته من خلال عملية التصميم والبناء. ولقد شبه المعماري والمنظر جون شوت John Shute ، في القرن السادس عشر، المدينة بجسم الإنسان حين قال: "ينبغي للمدينة أن تماثل جسم الإنسان. وعليه لابد لها أن تضم كل ما من شأنه أن يبعث الحياة في الإنسان".[4] إن التصميم العمراني هو استعمال الإنسان للمعارف التكنولوجية المتراكمة بغرض التحكم في البيئة المحيطة وتطويعها لتتكيف مع متطلباته الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية والدينية، تماماً كما هي العمارة. إنه الأسلوب الذي تعلمه الناس واستعملوه لصياغة الحلول المناسبة لكافة متطلبات برنامج إنشاء المدينة. فالمدينة هي أحد عناصر الثقافة الروحية والفيزيقية للسكان وهي بالتأكيد أهم تعبير عن هذه الثقافة.

يشكل الإنسان بقيمه وتطلعاته، ومدى طاقته على تحقيق هذه القيم وقدرته على تجسيد تلك التطلعات، محور الدراسة في التصميم العمراني. و مهمة من يبنون المدينة وينشئونها هي استيعاب هذه التطلعات والاحتياجات الخاصة بالسكان المعنيين أنفسهم ليقوموا بتجسيدها في شكل مبني. والسؤال المطروح عندئذ هو، كيف السبيل لمن تُناط به مهمة بناء المدينة وتصميمها أن يقوم بخدمة مجتمعه وتلبية احتياجاته على أكمل وجه؟ كيف يمكن للمصمم أن يطمئن على أن يكون المنتج النهائي لعمله مقبولاً ثقافياً؟ هذه التساؤلات وغيرها قضايا جوهرية تواجه معشر المشتغلين بمهنة تصميم المدن.

إن التجارب التي عرفتها بريطانيا وكثير من الدول غيرها في ماضيها القريب مفعمة بأعمال التطوير التي أخفقت بالرغم من صدق النوايا لدى القائمين عليها. ومن أمثلة ذلك يمكن ذكر المساكن الشعبية التي تم بناؤها في فترة الستينات، وكذا مجمعات المكاتب الضخمة والمناطق التجارية الكبرى. وقد ساهمت هذه المشاريع التطويرية في تفكيك ودمار النسيج العمراني للمدينة. فجاءت حركة المحافظة على التراث ونمت كرد فعل لذلك حتى تَحُد من التمادي في نفس الأخطاء والإخفاقات التطويرية التي شوهت المدن. وبسبب المغالاة في مبدأ المحافظة على النسيج العمراني للمدينة فقد تعذر في كثير من الأحيان إعادة تجديد بعض المباني القديمة وإن كانت سيئة المظهر. لكن شوت Shute أحد أول المنظرين وواضع أول كتاب في العمارة ببريطانيا، يعتقد أن لكل مبنى عمراً طبيعياً افتراضياً ينبغي بعده تجديد المبنى أو تغييره، رضينا بذلك أم أبينا. "فالإنسان، على الرغم من كونه يتغذى، إلا أنه يفنى ويموت. وكذلك نفس الشيء يحصل للمبنى حيث يتهاوى بفعل الزمن وينهار، تماماً كما يموت الإنسان".[5] لقد

عادت إلى الرواج من جديد في هذه الأيام، عمليات نقل واستنساخ العناصر التصميمية لأشكال من الأساليب المعمارية القديمة في أوساط بناة المدن حول العالم، وكأن إقامة قبة بَصَلية أو منارة أو قوس بشكل حذوة الحصان سيجعل من التصميم السيئ الفج، تطويراً جيداً ومقبولاً ثقافياً واجتماعياً.

إن فوضى حركة ما بعد الحداثة في العمارة واعتمادها على الكليشهات والانتقائية في استعمال الرموز من الماضي، عليها أن تتبنى مبدأ العقلانية في التصميم المعماري منهجاً وأسلوباً إن هي أرادت أن تتطور وتتقدم. وعلى التصميم العمراني أيضا أن يرجع في منهجيته إلى جذوره. كما ينبغي لهذه المنهجية أن تتمحور حول العلاقة بين المصمم والزبون.

فقد بات واضحاً أن هناك فجوة ما بين المصمم والزبون. في الماضي كان المعماري يشتغل لحساب شخص أو مجموعة صغيرة من الأشخاص يمثلون مالك الأرض، أو ممثلي الكنيسة أو شركة أو جهة حكومية. وكان المعماري كالزبون، كلاهما ينحدران من نفس البيئة الثقافية ولهما نفس مجموعة القيم والمعايير. إلا أنه مع تنامي الديمقراطية وثقافة الجماهير، أصبح مطلوباً من المعماري ومصمم المدينة أن يحيط بفريق واسع من الزبائن ويتعامل معهم. وقد يضم هذا الفريق جماعة المنتمين للكنيسة ومجموعة المنتخبين العاديين وعامة المستخدمين للمباني. كثير من أعضاء هذا الحشد الموسع لمجموعة الزبائن لا تحمل نفس القيم ولا تشترك بنفس العادات مع فريق التصميم. ومن هنا فإنه كثيراً ما تكون هناك فجوة ثقافية تفصل ما بين بناة المدن ومجموعات الزبائن الجديدة التي يمثلها رجل الشارع العادي.

إن هذه الفجوة الفاصلة ما بين المصمم والزبون يمكن تجسيرها إذا ما حصل هناك اعتراف بالمشكلة وتم تحديد طبيعتها. فلا بد من الإقرار بأن مجموعات الزبائن فرق معقدة وغير متجانسة في تركيبتها، وعلى المصمم أن يدرك أن الثقافة ليست جامدة بل

هي في تغير دؤوب وتطور مستمر، وأن المصمم ذاته قد يكون أحياناً، أحد عوامل هذا التغير والتطور. وعليه فإنه ينبغي تطوير تقنيات وطرائق جديدة لكيفية التعامل مع مختلف فئات المجتمع.

يكفي لمعرفة حجم الهوة الفاصلة بين المصممين وزبائنهم أن يطلع المرء على الانتقادات اللاذعة التي ترد في وسائل الإعلام حول مشاريع التطوير التي يقوم بتصميمها معشر المخططين والمعماريين. ولعل أحسن من أَجمَل هذه الآراء هو الأمير تشارلز Prince Charles في ملاحظاته التي أدلى بها في مهرجان العمارة المنعقد في هامبتون كورت Hampton Court سنة ١٩٨٤م. ففي هجومه العنيف على الممارسة المعمارية في بريطانيا Britain، شبه الأمير أعمال أرانِدس Ahrends، بارتون Burton وكورالاك Koralek في توسعتهم للمتحف الوطني، "بالتورم البشع في وجه الصديقة الحسناء التي نُحب ونَعشق". وقال عن تصميم ميز فان در رووبه Mies Van Der Rohe لقصر بيت الساحة "إنه عبارة عن هيكل زجاجي عملاق، هو أنسب لمدينة شيكاغو Chicago".[6] أهمية مثل هذه الآراء لا تكمن في كونها صدرت عن أحد أفراد العائلة المالكة، ولكنها تعبر عما يشعر به عامة الناس في المجتمع.

إن سبب هذا العزوف العام عن مشاريع التطوير العمراني وعدم الرضى عنه يكمن بالأساس في تكوين المعماريين والمخططين أنفسهم. فالتكوين الذي يخضع له المعماريون والمصممون والمخططون يتم في أجواء معزولة عن المجتمع، وتُدَرَّس مواضيعه دونما إشارة كبيرة لمراعاة من هم معنيون بالمنتج النهائي. فتدريس التخطيط العمراني إلى عهد قريب، كانت تهيمن عليه الأفكار والنظريات الطلائعية التي تمجد التجديد والتحديث رغم عدم خضوعه على المحك لتجريبه وفحصه والتحقق من مدى ملاءمته وقبوله ثقافياً. فكانت النتيجة هو بروز ثقافة تصميمية يكون فيها المصمم منغلقاً على ذاته وعلى أمثاله من أصحاب المهنة وكأنهم زبائن له. فأصبح المهم بالنسبة له،

هو مدى تقبل معشر أهل المهنة لأفكاره ورضاهم بتصاميمه. وهذا هو ما جعل المصممين فئة معزولة عن جماهير المستعملين، مبتعدة عنها. لا يمكن نكران أنه كانت هناك بعض الاستثناءات لهذه الظاهرة تمثلت في ظهور حركة تدعو لتبني مقاربة شعبوية في التصميم. لكن ظاهرة اتساع الفجوة بين المصممين وجمهور المستعملين كانت ملفتة وطاغية.

إن مجتمع سكان المدينة الذين هم محور هذه الدراسة، هو مجتمع معقد التركيب، غير متجانس، وتخترقه عدة ثقافات متنوعة تحمل قيماً وتطلعات مختلفة. ثم إن فهم ثقافة غريبة ليس بالأمر الهين، بل تكتنفه صعوبات كثيرة. وما يزيد الأمر صعوبة وتعقيداً هو أنه في سعينا لفهم العالم من حولنا فإننا ننطلق من الإطار الذي ترسمه لنا ثقافتنا الخاصة مع بعض التعديلات من منظور مرجعياتنا الشخصية. هذا الإطار التحليلي المتجذر في الثقافة، على أهميته في تشكيل أفكارنا، هو الذي يشوش فهمنا ويعيق استيعابنا لثقافة الآخر. فالثقافة هي عبارة عن مصفاة تعمل وتَحُول ما بين المحيط الخارجي والمستقبل. إن فهم الآخر يتطلب أولاً وقبل كل شيء، استيعاب المحددات والعوائق التي تضعها الأطر الثقافية والمرجعيات الذاتية الخاصة بنا.[7] إن أسلوب التصميم الذي ندعو إليه هنا بكل تواضع، يختلف إلى حد ما عن المواقف المتعالية التي يقول بها من يرون أنفسهم، هم وحدهم عباقرة التصميم وأهله دون سواهم. وعليه فإنني أرى أن تغييراً في مواقف معشر المصممين أمر ضروري إذا ما أريد لأصحاب هذه المهنة أن يستوعبوا احتياجات وتطلعات المجتمعات ويشتغلون مع أفرادها بنجاح وتوافق.

إن الثقافة ليست جامدة هامدة بل هي في حالة من التغير الدائم والحركة الدؤوب. فالعالم من حولنا يتقارب وتتقلص مسافاته وتتزايد معه فرص احتكاك الناس وتقاربهم وتلاقيهم بعضهم مع بعض. والنتيجة هي احتكاك الثقافات وتلاقحها وتغيرها. وكل ذلك يتم فيما يبدو، بوتيرة متسارعة يوماً بعد يوم. وحيث أن عملية التصميم هي عملية

استشرافية للمستقبل، بدليل أننا لا نصمم للوقت الراهن وإنما للمستقبل، فإن أي تراجع للوراء أو جمود في اللحظة الراهنة يعد مجافاة لحقيقة التصميم وابتعاد عما ينبغي له أن يكون. فحركية التغير الثقافي يجب أن تكون إذا هي مركز اهتمام المصمم العمراني، وهو ما يعبر عنه الأنتروبولوجيون بمصطلح التلاقح الثقافي Acculturation ويعني الكيفية التي يتم بها استيعاب ثقافة ما للأفكار والقيم الجديدة وتبنيها لها.[8] إن عوامل التغيير وعناصره هي التي ينبغي الإحاطة بها وفهمها. وما يزيد الأمر تعقيداً هو اعتقاد المعماري والمصمم والمخطط أنهم هم أنفسهم أحد أهم عناصر هذا التغيير. فالمصمم حتى وإن اشتغل مع الناس، فإنه ليس مجرد عنصر حيادي أو ملاحظ موضوعي، وإنما هو فاعل أساسي في عملية الحراك الثقافي للمجتمع الذي يوظفه.

تتمثل إحدى أهم مهارات المصمم في تطوير جملة من التقنيات تضبط عملية التصميم وتؤسس لها. تنهل هذه التقنيات من عدة تخصصات تشمل دراسات أنتروبولوجية لرصد المعطيات الثقافية والقيام بدراسات للمستعملين، بالإضافة إلى المسوحات التخطيطية الميدانية وتقنيات جمع المعلومات، والدراسات التوثيقية والمكتبية، والإجراءات الإدارية وهلم جراً. كما يمكن الاستعانة بالاجتماعات العامة لسبر ومعرفة آراء السكان وإدراج اهتماماتهم ضمن البرامج الساسية. وأخيراً هناك نوع من أشكال المشاركة النشطة مثل التمارين التصميمية للسكان community design exercises وعمليات البناء الذاتي self-build operations وإدارة المجتمع ومراقبته community administration and control. إن جملة التقنيات التي يوضحها الشكل رقم (١,١) سوف لن تعود بالفائدة المرجوة منها ما لم نتمكن من تحديد التقنيات الأنسب والأنجع للحالة المعينة، ومعرفة طبيعة التغييرات التي ينبغي إدراجها لتسهيل عمل الآليات المختارة بنجاح وفعالية.

Techniques of Participation	١– تقنيات المشاركة
Community Administration	١– إدارة المجتمع
Self-Build	٢– البناء الذاتي
Community Planning &Design	٣– تخطيط وتصميم المجتمع
Public Meetings	٤– اللقاءات العامة
Political Manifesto	٥– الوثيقة السياسية
Public Enquiries	٦– المساءلة العامة
Planning Appeals	٧– الاعتراضات التخطيطية
The Exhibition	٨– العروض
Press Release	٩– منشورات الصحف
Planning Survey	١٠– المسوحات التخطيطية
User Study	١١– مسح المستعملين
Anthropological Study	١٢– الدراسات الأنثروبولوجية

الشكل رقم (١,١). تقنيات المشاركة.

ليس هناك مفهوم واحد متفق عليه لمصطلح المشاركة الشعبية، إلا أنه ولحسن حظ المخططين المشتغلين في هذا الشأن، فإن شيري أرنستاين Sherry Arnstein قد حددت المعاني المختلفة المتعلقة بهذا المصطلح.[9] فالسلم الذي وضعته قبل ٣٠ سنة لمستويات المشاركة (الشكل رقم ١,٢) ما زال يعد أداة جيدة لتحليل أسلوب المشاركة. تتراوح أنماط المشاركة حسب دراستها من الأشكال المزيفة للمشاركة والتي عبرت عنها بأساليب التسكين العلاجي therapy والتلاعب والمناورة manipulation، إلى مستويات أعلى أقرب إلى المشاركة بشكل رمزي وشكلي tokenism كالإبلاغ informing والاستشارة consultation والمهادنة والاسترضاء placation. أما المستويات الأعلى والتي تكون فيها المشاركة حقيقية وفعالة فهي الشراكة partnership وتفويض السلطات delegated powers وممارسة

المراقبة citizen control من المواطنين أنفسهم على العملية التخطيطية، وفي هذه المستويات يكون هناك نوع من تقاسم السلطات مع المواطنين المعنيين.

Levels of Participation	٢. مستويات المشاركة	
مستويات سلطة المواطن **Degrees of Citizen Power**	Citizen Control	١- مراقبة المواطن
	Delegated Power	٢- تفويض السلطات
	Partnership	٣-الشراكة
مستويات المشاركة الرمزية أو الشكلية **Degrees of Tokenism**	Placation	٤- المهادنة والاسترضاء
	Consultation	٥- الاستشارة
	Informing	٦- الإبلاغ
لا مشاركة **Non-participation**	Therapy	٧- التسكين العلاجي
	Manipulation	٨- التلاعب والمناورة

الشكل رقم (١,٢). مستويات المشاركة.

يُسهِّل سلم مستويات المشاركة لأرنستاين Arnstein استيعاب الخلل الحاصل في التواصل ما بين المخططين والمصممين والسياسيين من جهة والمخطَّط لهم "Planned for" من جهة أخرى. فالمواطنون عادة ما يرفعون سقف توقعاتهم من مشاركتهم فيعتقدون أن الكلمة الفصل ستؤول لهم في عملية اتخاذ القرارات. إلا أن هذه المشاركة قد لا تعدو، في نظر المحترفين والسياسيين، من أن تكون مجرد حملة دعائية أو استشارة لا أكثر. فعبارة مثل "مشاركة أكبر" قد تعني للمواطنين شكلاً من أشكال المشاركة المكثفة الفعالة، وبالتالي ارتقاءاً للمستويات العليا في هرم المشاركة، لكنها بالمقابل قد تكون من منظور السياسيين والمخططين المحترفين مجرد استشارات مكثفة في شكل حملة دعائية أشد وأكبر.

من خلال الشكلين رقمي (١,١ ، ١,٢) يتضح أن المشاركة الفعالة والحقيقية، أي المستويات العليا في سلم أرنستاين Arnstein، تتطلب تقنيات مناسبة بحيث يكون المواطن مساهماً ومشاركاً بفعالية في وضع المخططات، وتصميمها وتنفيذها وإدارتها،

وحتى الاستفادة من العوائد الاقتصادية للتطوير. أما المستويات المتوسطة للمشاركة والتي غالباً ما نجدها في الديمقراطيات الغربية، فإنها تلجأ للأساليب البيروقراطية في تقنياتها والتي يقترحها عادة محترفو الإدارة. أما في المراتب الدنيا للسلم، والذي لا يُعد في نظر أرنستاين Arnstein من المشاركة في شيء، ذلك أنها لا تعدو أن تكون مجرد أساليب موضوعية وعلمية لجمع المعلومات واستقائها ليتم الاسترشاد بها أثناء عملية التصميم والتخطيط. والنتيجة هي فقط شكل من أشكال الإدارة الإنسانية المتفهمة والمتعاطفة، لكنها لم تتحرر بعد، من طبيعتها السلطوية والأبوية.

تحقيق المستويات العليا من المشاركة يستدعي إعادة توزيع للسلطات بحيث يتم نزع أجزاء من الصلاحيات من بعض الأطراف ومنحها للبعض الآخر. وكلما ارتقينا في سلم أرنستاين Arnstein كلما كان هناك انتقال للسلطات والصلاحيات لمصلحة المواطنين. فعلى سبيل المثال، فإن كلا من المخطط والمصمم والمعماري، سيفقدون جزءًا من سلطتهم على تقرير المنتج النهائي لعملية التطوير، وسوف لن يعود لهم وحدهم أمر تقرير ما سيكون عليه مصيرها. هذا النوع من التفكير سيجعل من عملية التخطيط والتصميم والتطوير عملية سياسية بامتياز.[10]

يشير الكُتّاب الأمريكان بوضوح تام إلى أن القرارات التخطيطية هي بطبيعتها قرارات سياسية، ولا يمكن اعتبارها مجرد أدوات تقنية. وفي هذا الشأن يقول بول دافيدوف Paul Davidoff على سبيل المثال، أن "السياسة في جوهرها هي من يحصل على ماذا؟ أو هي العدالة في التوزيع. وعملية التخطيط هي جزء من المنظومة السياسية ككل وهي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بمسألة التوزيع في المجتمع الذي يشتغل المخططون ضمنه".[11] وإلى هذا المعنى بالذات أشار ديفيد إفرسلي David Eversley في بريطانيا حين كتب يقول:

"يجب أن نقر بوضوح بأنه ما دام المخطط بحسب التعريف المقدم هنا، هو من يحدد حيث ينبغي البناء من عدمه، وحيث تتم عملية توسعة المدينة وحيث تجري عمليات التطوير، كما أنه هو من يوجه حيث ينبغي أن تكون المناطق التي تُمنع فيها عمليات البناء لتُخصص للمنتزهات العامة أو للمناطق

الطبيعية الجميلة، كما يحدد أين ستكون مواقع محطات الطاقة وحيث ينبغي فتح القنوات وشق الطرق وغلق مسارات سكة الحديد. بهذا المعنى فإن المخطط هو المسؤول في الواقع عن توزيع وتخصيص أهم جزء من المنتج الوطني وما يترتب عنه من عوائد وفوائد".[12]

يمكن القول إذن، أن التصميم العمراني يتقارب ويتقاطع مع التخطيط في جوانب كثيرة. وحيث أنه يعني بتطوير أجزاء واسعة من المدينة، فهو أيضاً يهتم بتوزيع الموارد والثروات شأنه في ذلك شأن التخطيط ذاته. لكن ينبغي الإشارة إلى أنه من الأحسن للمصمم أن يتحاشى التعاطي مع التصميم من خلال هذا المنظور ويلتزم حدود العمليات الفنية في التصميم وينأى بنفسه عن تعقيدات المشاركة الشعبية وما ينجر عنها من توزيع الثروة وتقاسم السلطات، ذلك أن مثل هذا الاهتمام من شأنه أن يزج بالمهنة في أتون الصراعات السياسية.

يوضح الشكل رقم (١,٣) سلماً للمنظومة السياسية انطلاقاً من نظام الفوضى مروراً بمختلف أشكال الديمقراطيات إلى أنواع الديكتاتوريات والأنظمة الشمولية التي عرفها العالم. إن أي حديث عن المشاركة الشعبية يعني بالضرورة أن النظام السياسي الأنسب هو الحالة الوسطية ما بين طرفي النقيض: الفوضى والديكتاتورية. فحالة الفوضى، بالرغم من أن بعض النشطاء يدعون لها، لا يمكنها أن تستمر طويلا حتى تُعوض بنظام مُقيِّد نوعا ما. أما الأنظمة الشمولية فهي بطبيعتها لا تسمح بقيام مشاركة حقيقية وفعالة.

Political System		٣- النظام السياسي
Anarchy		١- الفوضى
الحكم الديمقراطي Democratic Government	Participatory	٢- الديمقراطية بالمشاركة
	Representative	٣- الديمقراطية التمثيلية
Totalitarian Government		٤- الحكم الشمولي

الشكل رقم (١,٣). النظام السياسي.

تقدم كارول باتمان Carole Pateman ثلاثة تعاريف للديمقراطية.[13] أولها هي الديمقراطية التمثيلية أو الحديثة، وثانيها الديمقراطية الكلاسيكية وهي التي ارتبطت بكتابات فلاسفة القرن الثامن عشر، وأخيراً ديمقراطية المشاركة وهي المؤسسة على قراءة جديدة وتفسير مستجد لكتابات جون جاك روسو Jean Jacques Rousseau الخاصة بالمجتمع الصناعي.

يعود الفضل في وضع الأساس النظري للديمقراطية التمثيلية لجوزف شومبيتر Joseph Schumpeter وآخرون. فقد كتب شومبيتر Schumpeter يقول: "يقوم الأسلوب الديمقراطي على تنظيم مؤسسات اتخاذ القرارات السياسية بحيث يحصل الأفراد على سلطة القرار من خلال التنافس على أصوات الناخبين"[14] إن المنافسة على أصوات الناخبين شبيهة إلى حد بعيد بعمل اقتصاد السوق. فالناخبون يختارون من بين مجموعة السياسات المطروحة أمامهم من مختلف الفاعلين السياسيين. الأحزاب السياسية عندئذ، هي أشبه ما يكون بجمعيات التجار في سوق الاقتصاد لتنظيم عمل المنافسة. وعليه فإن "المشاركة" في الأغلبية الناجمة عن الديمقراطية التمثيلية هي إذا مجرد مشاركة في اختيار صانعي القرار.

إن الديمقراطية التمثيلية لا تتطلب مستويات أعلى من المشاركة والاهتمام بالشأن السياسي إلا من فئة قليلة. ولقد أشارت باتمان Pateman أن "عزوف الأغلبية وعدم اكتراثها يلعب دوراً حاسماً في الحفاظ على استقرار النظام".[15] ينبغي إذا للمخططين والمصممين أن يكونوا على دراية بقصور هذه النظرة للعملية السياسية التي من خلالها تُضفى الشرعية على المخططات وتُنفذ أعمال التطوير. إن التعاطي مع قضايا الناس، أين يسكنون وكيف يعيشون ويعملون ويُدَرسون أبناءهم، ينبغي أن يقودنا إلى التساؤل حول ضرورة اتخاذ مثل هذه القرارات من طرف ممثلي الشعب. فنزع حق وصلاحية اتخاذ هذه القرارات من الشعب نفسه، يعني نزع ثقة الشعب بذاته وعدم احترام لهذه الذات ومساس بكرامته كبشر وكآدميين.

إن "المشاركة" عنصر أساسي في عملية اتخاذ القرار وهي أيضاً وسيلة لحماية المصالح الخاصة لدى أتباع روسو Rousseau وأصحاب الرأي القائل بديمقراطية المشاركة. تعنى هذه النظرية بالآثار النفسية للمؤسسات الاجتماعية والسياسية. فالوظيفة الأساسية لنظرية روسو Rousseau هي تربوية بالدرجة الأولى، والهدف منها هو تأسيس نظام سياسي يكون أفراده مسؤولين. فإذا كان المرء لا يتعلم السباحة إلا إذا مارسها، فإنه لن يتعلم الديمقراطية إلا إذا كان مشاركاً في العملية الديمقراطية ومساهماً فيها. فالعملية الديمقراطية برأي روسو Rousseau ومن حذا حذوه من مفكري القرن العشرين، لابد أن تسري على جميع شؤون المجتمع بما في ذلك القرارات التخطيطية والتطويرية.

إن مقارنة سلم المشاركة الشعبية لأرنستاين Arnstein (الشكل رقم ١.٢) مع أنماط التسيير الحكومي والأنظمة السياسية (الشكل رقم ١.٣)، قد تشير إلى أن المرء يتوقع أن تتزايد كثافة المشاركة وشدتها كلما اقتربنا من حالة الأنظمة الفوضوية حيث تكون القرارات عبارة عن مزيج لمجموع القرارات الفردية. كما يمكن أن نتوقع أن الديمقراطية هي شكل من أشكال المشاركة الشكلية والرمزية في اتخاذ القرارات. وبالنظر إلى أنواع تقنيات المشاركة كما هي مبينة في الشكل رقم (١.١)، فإن التقنيات الأنسب لهذا النوع من السياسات هي تلك الإجراءات الإدارية التي تضعها بيروقراطية الإدارة. يبدو أن استعمال التقنيات التي تمثل أساليب المشاركة المكثفة تستوجب أن يكون الناس واعين ونشطين سياسياً، مع وجود درجة عالية من التسامح والتساهل مع أشكال العمل الديمقراطي على المستوى المحلي من طرف الحكومات المركزية.

يتميز الشكل رقم (١.٣) بتبسيطه الشديد لأنماط التسيير والأنظمة السياسية. فهو لم يأخذ في الحسبان الأنظمة الإدارية ولا طبيعة العلاقات ما بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية ضمن أي من الديمقراطيات التمثيلية، مع أنها قضايا لها أهميتها ووزنها. فقد تختلف وتتباين طبيعة العلاقات ما بين المستوى المركزي للحكومة والمستوى المحلي حتى داخل البلد

الواحد. فقد شهدت عشرية الثمانينيات من القرن الماضي في بريطانيا على سبيل المثال، تحولاً في موازين القوى والسلطات من الأطراف إلى المركز. أما في أواخر التسعينيات فيبدو أن هناك نقل للسلطات والصلاحيات من الحكومة المركزية إلى كل من سكوتلندا وويلز وإيرلندا الشمالية وأقاليم المناطق بإنكلترا.

لتفعيل المشاركة الحقيقية والكاملة، فإنه من الضرورة بمكان تخويل الصلاحيات والسلطات للهيئات المحلية ووضع صلاحية اتخاذ القرارات فيما يخص قضايا الإسكان والخدمات العامة في يد السكان المعنيين أنفسهم. فلامركزية السلطات تعني بالضرورة شعباً واعياً ونشطاً في العمل السياسي.

يبين الشكل رقم (١,٤) المستلهم من سلم أكستك Ekistic كونستانتينوس دوكسيادس Constantinos Doxiadis، التدرج الهرمي للوحدات الفراغية.[16] فكلما نزلنا نحو قاعدة السلم تزايد عدد المستعملين المهتمين بنتائج القرارات التي تؤثر في شكل العنصر الفراغي. إن مقارنة بسيطة لهذا الشكل مع الشكلين رقمي (١,١، ١,٢)، توضح أن التقنيات المتعلقة بالمراقبة الشعبية والتخطيط واتخاذ القرارات على المستويات الأوسع، قد تبدو غير واقعية بالرغم من كل الظروف المواتية التي يمكن أن تسود المناخ الإداري والسياسي. فحيثما يكون التنسيق في الخدمات والشبكات التحتية والاقتصاد في المستويات الفراغية الأعلى أمراً مطلوباً، فإنه من الضروري تجاوز شكل المشاركة الشعبية الكاملة وتفويض الصلاحيات للممثلين المنتخبين. أما على مستوى المدينة وما فوقها، فإن تلك الإجراءات البيروقراطية كاللقاءات العامة والاستفسارات والاستئناف والبيانات واللوائح السياسية قد تصبح أحسن ما يمكن الحصول عليه، بصرف النظر عن طبيعة النظام السياسي القائم. لرفع مستوى المشاركة الشعبية وزيادة كثافتها في حالات الوحدات الفراغية الأوسع، فإنه ينبغي اللجوء حينئذ إلى تجزئة وتقسيم هذه الوحدات إلى عناصر تخطيطية أصغر بحجم الحي أو الشارع مع تحديد المهام والمسؤوليات التي يتم تفويضها على مستوى كل جزء.

Spatial Unit	١- الوحدة الفراغية
Room	١- الغرفة
Home	٢- البيت
Street	٣- الشارع
Neighborhood	٤- الحي
District Quarter	٥- المنطقة
Town	٦- المدينة الصغيرة
City	٧- المدينة الكبرى
Region	٨- الإقليم
Nation	٩- البلد

الشكل رقم (١,٤). الوحدة الفراغية.

يبين الشكل رقم (١,٥) عدداً من الطرق التخطيطية تتراوح من الشكل البسيط وغير الرسمي للتخطيط، "اللاتخطيط non-plan"، حيث يتحدد شكل التجمع بفعل القوى الاقتصادية وسلسلة من القرارات العفوية، وحيث تكون مشاريع المدى القصير هي الغالبة، وصولاً إلى الشكل المخطط التوجيهي الشامل حيث تكون فيه عناصر المخطط محددة بوضوح لترسم الحالة النهائية للمستقبل المرغوب الوصول إليه. يمكن أن نتصور في العمارة ترتيباً مماثلاً أيضاً، يتراوح من أشكال المساكن السيئة التي تحددها اعتبارات التكلفة والمضاربة فقط، مروراً بمفاهيم التصميم التراكمي Incremental وغير المنتظم وانتهاءً بالتصميم الهندسي والتركيب المحوري المتناظر. إن مقارنة هذه المفاهيم التخطيطية والتصميمية مع الأشكال السابقة تؤدي إلى نتيجة مفادها أن أنواع المشاركة الشعبية الفعالة تتلاءم وتتوافق مع أساليب التخطيط والتصميم الأقل صلابة ورسمية والأكثر عفوية. ففي حالة اللاتخطيط تكون قدرة الفرد على المشاركة متعلقة بقدرته على دفع التكاليف. ويكون المنتج الفيزيقي يتراوح من المسكن الفردي المنفصل (نمط الفيلا) كما نجده في الضواحي الراقية بأوروبا إلى الأكواخ العشوائية المؤقتة في أطراف

نيروبي Nairobi. بالمقابل فإن نماذج مخططات التطوير التوجيهية الشاملة للمدن والتركيبة المعمارية ذات المحاور لا تكاد تحتمل أي نوع من المشاركة الشعبية.

Mode of Planning	٥– أنماط التخطيط
Non-plan	١– لا–تخطيط
Action-plan	٢– مخطط تنفيذي
Incremental Planning	٣– التخطيط التراكمي
Mixed Scanning	٤– المعاينة المختلطة
Structure Plan	٥– المخطط الهيكلي
Master Plan	٦– المخطط الشامل

الشكل رقم (١,٥). أنماط التخطيط.

بتركيب الأشكال السابق ذكرها بعضها مع بعض ينتج معنا الشكل رقم (١,٦) ليوضح بعض الطرق التي من خلالها يمكن تحليل عملية المشاركة الشعبية وظروفها. يمكن تصور الشكل على هيئة مسطرة معقدة بحيث يمكن إزاحة أي سلم للأعلى أو للأسفل بحسب السلم المجاور له، حينها يمكن توصيف الشروط التي يمكنها أن تكون فاعلة في أي حالة مع الأخذ في الحسبان بعض العوامل التي لم يأت ذكرها في السلم.[17]

في الحالات التي تكون فيها عملية المشاركة القوية والفاعلة مرغوباً فيها فإنه ينبغي على المخطط أو المصمم أن يفكر من منطلق إدارة المجتمع والبناء الذاتي مع التخطيط والتصميم للمجتمع. وهذا قد يستدعي بدوره مستويات أعلى من ديمقراطية المشاركة مع شكل من أشكال لامركزية السلطات واتخاذ القرارات. مثل هذه الظروف تنطبق فقط على الحالات يكون فيها التخطيط مهتماً بالبيت أو الشارع أو بالحي السكني. أما الغرفة فيُفترض فيها أن تكون فراغاً شخصياً خالصاً، وبالتالي فإنه قد لا يستدعي أي تدخل من جانب المجتمع. أما جزء المدينة الذي يضم مجموعة من الأحياء فإن مداه واسع كبير، وعليه فإنه قد لا تُجدي معه عمليات المشاركة الشعبية. ولعل نوع التخطيط الأنسب في مثل هذه الحالات هو التخطيط التراكمي

Incremental Planning أو التخطيط التلقائي وغير المنتظم ad hoc Planning والذي ينتج عن الحلول المعمارية غير الرسمية (لاحظ الجزء المظلل من الشكل رقم ١,٦).

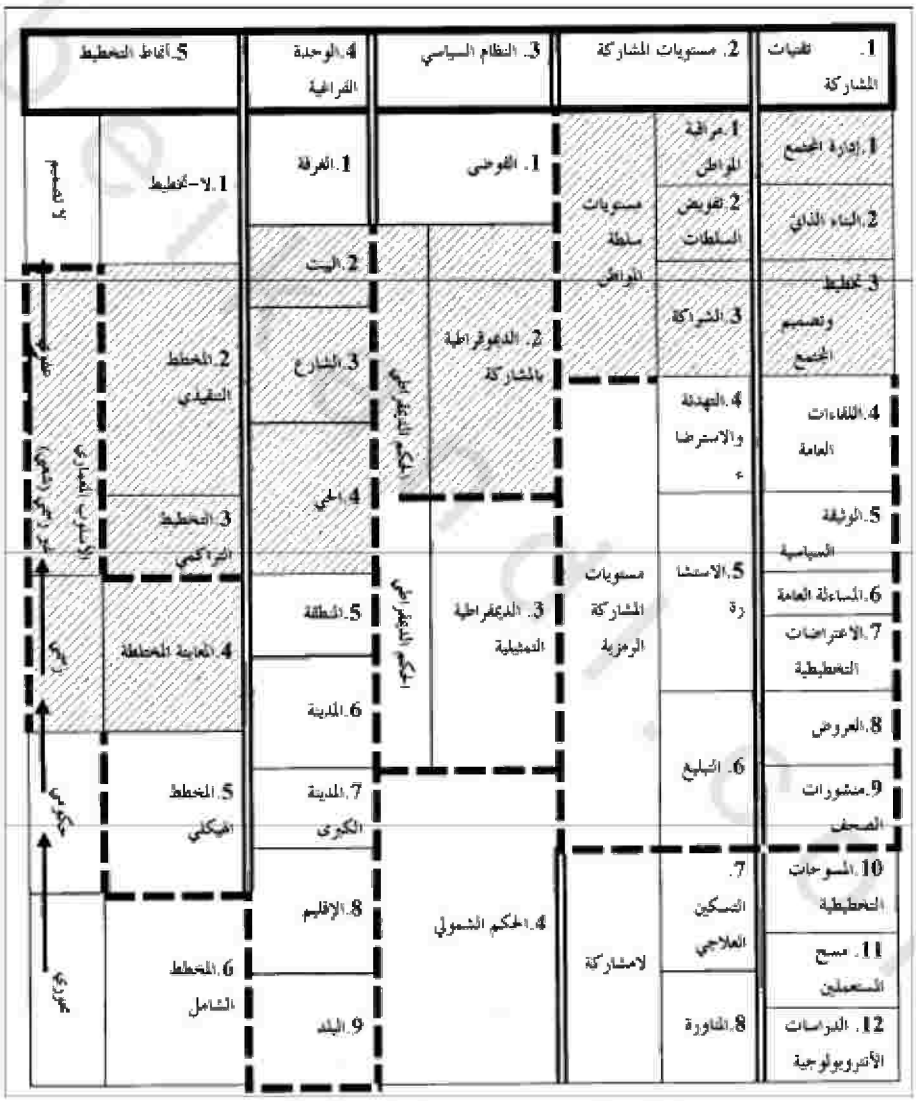

الشكل رقم (١,٦). سلم تحليلي للمشاركة الشعبية.

بالمقابل، فإن تقنيات المشاركة المناسبة لتخطيط المدن والأقاليم وللتخطيط على المستوى الوطني قد تقتصر على إعداد اللوائح وصياغة الاستراتيجيات السياسية وتنظيم اللقاءات العامة وإجراء سبر الآراء، بالإضافة إلى الطعون التخطيطية والكتابات والعروض الإعلامية والمعارض التخطيطية. وهذا ما عبرت عنه أرنستاين Arnestein بالمشاركة الشكلية أو الرمزية tokenism. ومع ذلك فإن هذا النوع من المشاركة، على بساطته وشكليته، لا يمكن أن يتم إلا في ظل نوع من أنواع الحكم الديمقراطي. عند هذه المستويات، قد يكون نوع التخطيط المناسب متمثلاً في التخطيط المختلط mixed-scanning planning والمخططات الهيكلية structure planning. ويفترض أن يتحدد الأسلوب المعماري بحجم المراقبة الحقيقية التي يمارسها المواطن على المستويات المحلية (انظر الجزء المحدد بالخط المنكسر العرض في الشكل رقم ١,٦).

عملية التصميم العمراني
The Urban Design Process

إن التطوير العمراني هو نتاج لعملية مستمرة وبالتالي فإنه من السذاجة مناقشة قضية المشاركة الشعبية في التخطيط والتصميم دون تحديد نوع المشاركة والتقنيات المستعملة عند كل مرحلة من مراحل عملية التطوير.

استمر الأسلوب الذي وضعه السير باتريك غيدس Sir Patrick Geddes كأساس معتمد في عملية التخطيط لزمن طويل. ويقوم هذا الأسلوب على ثلاث مراحل هي "المسح survey ثم التحليل analysis فالمخطط plan". إلا أنه قبل القيام بعملية المسح لا بد من معرفة طبيعة المعلومات المطلوبة والغرض الذي سيتم تحليلها من أجله. لهذا قام آخرون بدعم مقولة غيدس Geddes بإضافة مراحل أخرى لأسلوب عملية التخطيط. يبين الشكل رقم (١,٧) إحدى هذه الإضافات. تشير توصيفات أسلوب التخطيط إلى أن عملية التخطيط ليست عملية خطية بحيث ينبغي الإفراغ من مرحلة ما قبل الانتقال

إلى المرحلة التي تليها. فعملية التخطيط هي عملية دورية تتخللها حلقات مرحلية بينية. فعلى سبيل المثال، قد يتم اللجوء لإعادة تحديد الأهداف أو جمع معلومات إضافية أو تحليل البيانات بطريقة مغايرة بعد الانتهاء من تقييم المخططات البديلة.

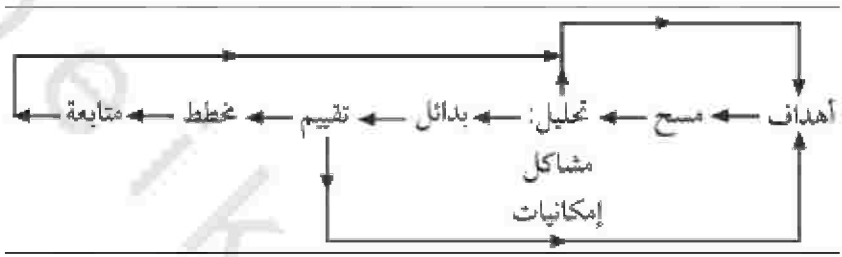

الشكل رقم (١,٧). أسلوب التخطيط.

إن أساليب التصميم التي يضعها المعماريون شبيهة إلى حد ما بتلك التي يتبناها المخططون. يقسم الكتيب الإرشادي للممارسة والإدارة الذي وضعه المعهد الملكي للمعماريين البريطانيين RIBA، عملية التصميم إلى أربع مراحل:[18]

المرحلة الأولى: الاستيعاب Assimilation: وهي تراكم المعلومات العامة وتجميع المعطيات الخاصة بالمشكل قيد التصميم.

المرحلة الثانية: الدراسة العامة General Study: وهي البحث في طبيعة المشكل ومحاولة إيجاد الحلول الممكنة له.

المرحلة الثالثة: التطوير Development: وتعني محاولة تطوير أحد هذه الحلول البديلة أو بعض منها.

المرحلة الرابعة: التواصل والتبليغ Communication: وهو تبليغ البديل المفضل الذي وقع عليه الاختيار للزبون.

أما توماس ماركوس Thomas Markus وتوماس ماير Thomas Mayer فقد قدما توصيفاً أكثر تفصيلاً لعملية التصميم.[19] فهما يعتقدان أن المصمم يمر عبر اتخاذ سلسلة

من القرارات أثناء عملية التصميم بدءاً بالتحليل فالتركيب ثم التقييم وأخيراً اتخاذ القرار النهائي للعملية التصميمية (الشكل رقم ١,٨). فعند مرحلة التحليل يتم تصنيف الأهداف والبحث عن المعلومات، أما في مرحلة التركيب فيتم عندها توليد الأفكار وبلورتها ثم تليها مرحلة التقييم النقدي للبدائل المطروحة ومقارنتها بالأهداف المسطرة والتكاليف المترتبة عنها والعوائق التي تعترض سبيلها. ويتم في النهاية اتخاذ القرارات المناسبة بناء على ما أفضت إليه عملية التقييم من نتائج. وتجدر الإشارة أن عملية الأخذ والرد والانتقال ذهاباً وجيئة بين مختلف المراحل أمر ضروري في كل عملية تصميم.

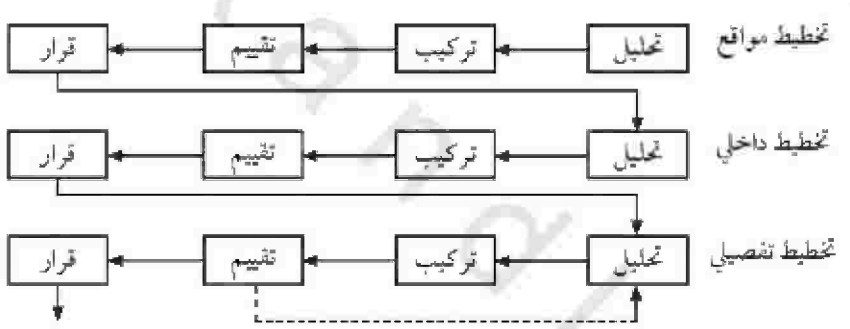

الشكل رقم (١,٨). الأسلوب المعماري.

يمكن تطبيق هذا الأسلوب الخاص بعملية التصميم المعماري للمبنى الواحد على نطاق أوسع ليشمل عمليات التصميم العمراني، وتخطيط المدن والتخطيط الإقليمي أيضاً (الشكل رقم ١,٩). في هذه الحالة، فإن القرارات المتخذة على أي مستوى أعلى لابد وأن توجه عملية التصميم في المستوى الذي يأتي دونه مباشرة، كالتخطيط الإقليمي وتخطيط المدن على سبيل المثال. ويكون لهذا الأسلوب الفائدة القصوى كلما كانت عناصر المحيط ومكوناته في المستوى الأدنى تندرج تماما مع الإطار العام للمستويات العليا وتتوافق معها، كأن يكون المبنى مثلاً مصمماً ضمن برنامج

التصميم العمراني الذي يحدده المخطط الهيكلي والذي بدوره ناتج ومستلهم من توجيهات المخطط الإقليمي. وتجدر الإشارة أن العملية ليست ذات اتجاه واحد من المستوى الأعلى والأعم إلى المستوى الأدنى والأخص. فيمكن القول أن تصميم المبنى الواحد سيؤثر على التركيبة العمرانية وهي بدورها ستؤثر على تصميم المنطقة من المنطقة التي يقع بها هذا الجزء العمراني ومن ثم كامل مخطط المدينة، وهكذا فإن ما يُتخذ من قرارات على المستويات الدنيا سيكون له تأثير على عملية التصميم والتخطيط على المستويات العليا أيضاً. لهذا كان الشكل رقم (١,٩) يتضمن حلقات إعادة ما بين مختلف مستويات عملية التطوير في تخطيط المدن.

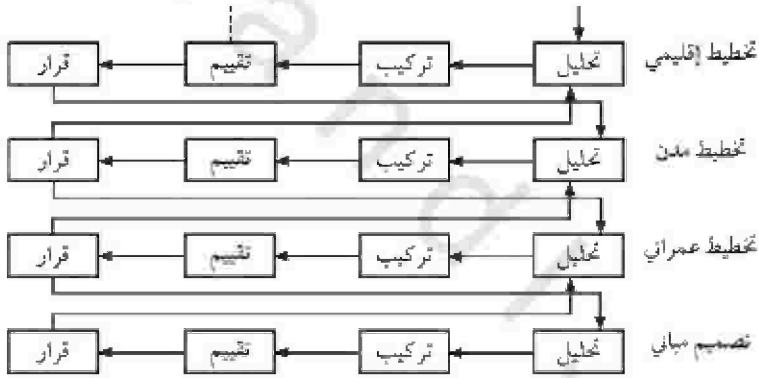

الشكل رقم (١,٩). الأسلوب المتكامل في التصميم.

لحد الآن لم يأت ذكر النظرية في منهجيات التخطيط والتصميم التي سبق ذكرها. فالحقائق من دون نظرية تؤسس لها تبقى مجرد أفكار لا معنى لها. لكنها تصبح ذات أبعاد ودلالات متى ما ارتبطت هذه الحقائق والمعطيات مع بعضها البعض ضمن بناء نظري سليم. فالحلول المقدمة لمشاكل التصميم العمراني، والطرق البديلة لتنظيم الفراغ في المدينة والأفكار حول العلاقة ما بين الوظيفة والهيكل العمراني كلها ذات منطلقات نظرية. لإدخال النظرية في عملية التصميم يمكن الاستلهام من منهجية العلوم.

يقول ولتر والاس Walter Wallace بهذا الخصوص: "يمكن وصف الأسلوب العلمي باعتباره يتضمن خمسة مكونات من المعلومات الأساسية بحيث تتم عملية التحول من الواحدة للأخرى بواسطة ست مجموعات رئيسة من المناهج..."[20] المعلومات الأساسية الخمسة هي: صلب موضوع النظرية the body of theory، الفروض hypotheses، مجموعة الملاحظات الفريدة unique observations من المحيط المجاور، التعميمات التجريبية empirical generalizations المشتقة من الملاحظات الفريدة، وأخيرا مجموعة القرارات المتعلقة بقبول أو رفض الفرضيات (الشكل رقم ١,١٠). أما المناهج الستة أو تقنيات التحويل فإنها موضحة بالشكل رقم (١,١١). فالنظرية، وهي النمط الأكثر عمومية من المعلومة، يمكن تحويلها إلى فرضيات بطريقة الاستنباط المنطقي logical deduction. أما الفرضيات فتتحول إلى ملاحظات عن طريق تفسيرها كظواهر ملحوظة observables أو بالاستخدام المخبري instrumentation أو بالتقيس scaling أو عن طريق إجراء العينات sampling. أما الملاحظات فتتحول إلى تعميمات تجريبية عن طريق القياس measurement أو جمع العينات sample summarization أو التقييم المعياري parameter estimation.

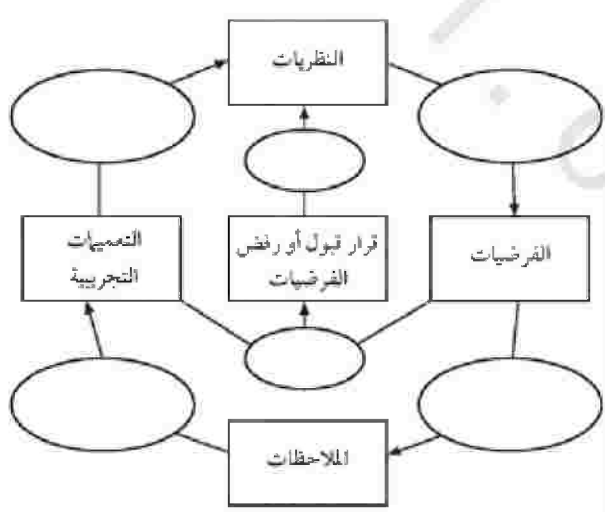

الشكل رقم (١,١٠). الأسلوب العلمي: مجموعات المعلومات.

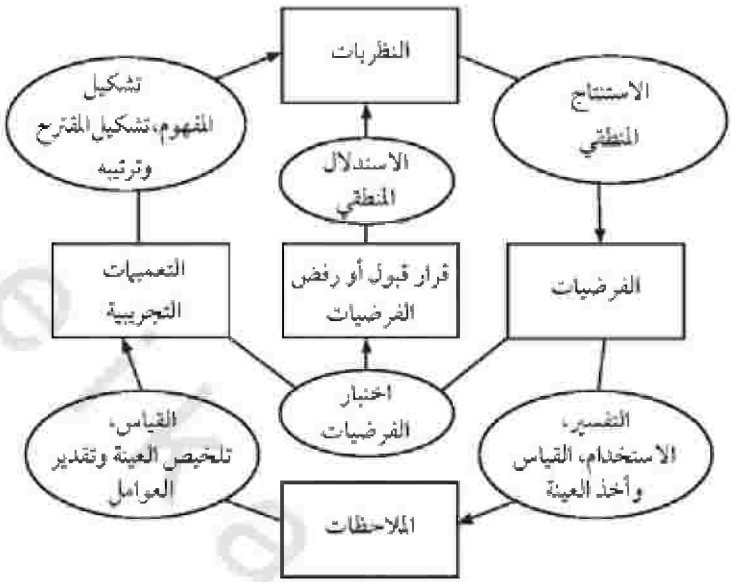

الشكل رقم (١,١١). الأسلوب العلمي: تقنيات التحويل.

ويمكن التحقق من الفرضيات من خلال مطابقتها بالتعميمات. من هذا التحقق يتم استخلاص المجموعة النهائية من المعلومات ومن ثم اتخاذ القرار بقبول مصداقية الفرضيات. هذه المرحلة الأخيرة في العملية هي الإثبات أو التعديل والتغيير أو الرفض للنظرية من خلال الاستنباط المنطقي أو بناء المفهوم أو صياغة النظرية وترتيبها. إذا كان هذا العرض للأسلوب العلمي واضحاً دقيقاً ومنتظماً فإنه يحتمل تغييرات عديدة. بعض عناصر هذا الأسلوب تبدو أكثر أهمية لدى بعض الباحثين من البعض الآخر. وقد يتوخى بعضهم صرامة أكبر وأشد في تطبيقهم لهذا الأسلوب، في حين يمارسه آخرون بطريقة عفوية ومبسطة.

يبدو أن هناك مركبان اثنان للعلوم هما البناء النظري والبحث التجريبي. فالجانب الأيسر من الشكل رقم (١,١٢) يمثل البناء الاستنباطي للنظرية من خلال فهم الملاحظات، في حين يمثل الجانب الأيمن منه التطبيق الاستنتاجي للنظرية من الملاحظات.

ويمثل النصف الأعلى للشكل عملية التنظير باستعمال المنطق الاستنتاجي والاستنباطي في حين يوضح النصف السفلي عملية إجراء البحث التجريبي.[21]

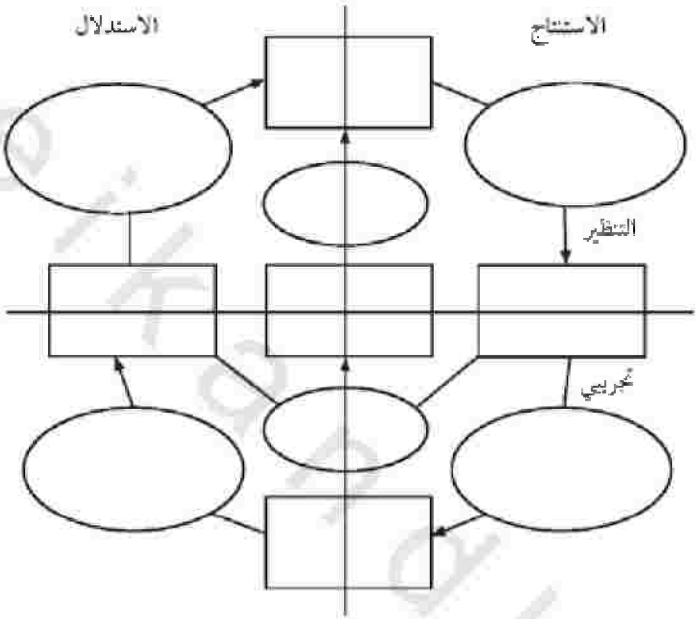

الشكل رقم (١,١٢). أساليب الاستنتاج والاستنباط.

أما الشكل رقم (١,١٣) فيبين طريقة التصميم المبنية وفق المنهج التحليلي للتفكير العلمي كما وضعه والاس Wallace مع إدراج النظرية فيه.[22] يمكن دخول دائرة التصميم من ثلاث نقاط، نظريات التصميم، الأفكار، أو مباشرة أثناء عملية التحري والبحث. كما يمكن نظرياً الانتقال من تعريف المشكلة إلى الأفكار لحل المشكلة أو البحث عن المعلومات التي ستكون لنا عوناً في البحث عن حلول لها.

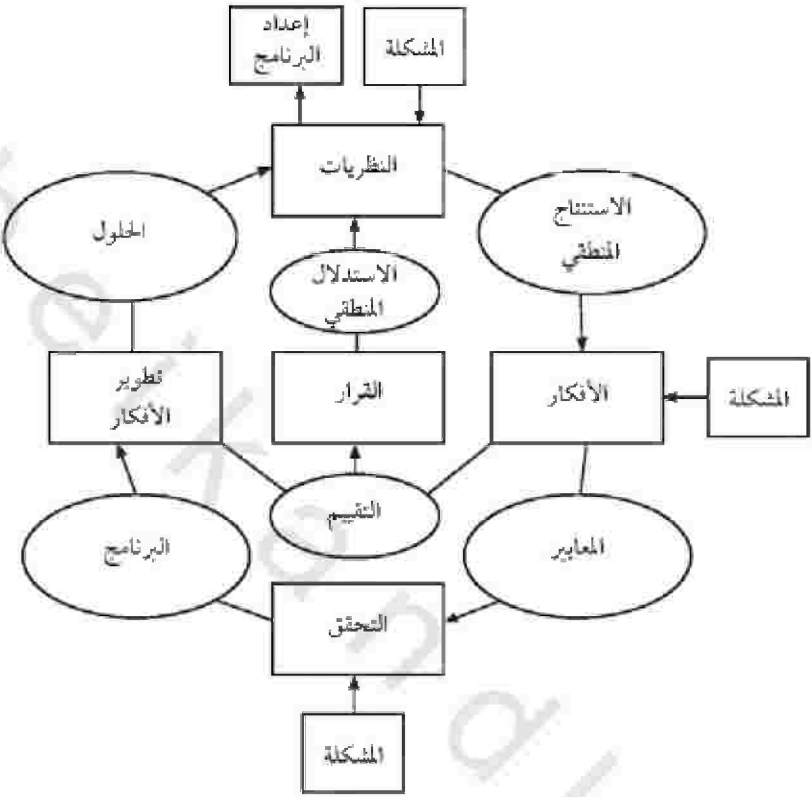

الشكل رقم (١,١٣). أسلوب التصميم العلمي.

إلا أن كلا هذين الإجراءين يتطلبان بعض المفاهيم الأولية حول النظرية حتى وإن كانت ضعيفة وغير واضحة بما فيه الكفاية. فمن خلال النظرية فقط، يصبح بالإمكان ربط الأفكار والمعطيات لتشكيل تصور ما. الإجراء الكلاسيكي المعتاد هو الانتقال من تعريف المشكلة إلى الاستيعاب النظري، بعدها تُتبع الخطوات باتجاه عقارب الساعة.

إن جوهر التفكير العلمي هو طرح الأسئلة الصحيحة. فكما تقول الحكمة الدارجة بأن طرح الأسئلة الحمقاء يولد إجابات حمقاء أيضاً، فإن ذلك يسري على

التصميم أيضاً. وعليه فإن طرح المشكلة هو عين فن التصميم وجوهره. هناك مدرسة قديمة تقول بأن إتباع الطريقة سينتج بالضرورة تصميماً رائعاً وجيداً. بمعنى أن دراسة المشكل متبوعة بتحليل منطقي لكل الحلول الممكنة سيؤول في النهاية إلى اختيار أنسب الحلول للمشكلة قيد الدراسة. قد يكون من الصعب وضع المشكلة في حالات التصميم المعقدة، كما قد يكون عسيراً جمع المعطيات والمعلومات عن المشكل، مما يعني أيضاً صعوبة في تصور الحلول المناسبة وصياغتها. وهذا ناتج عن سوء فهم لعملية التصميم حيث يتم بحث المشكل من خلال تفحص الحلول الممكنة. إن التطبيق الحقيقي لطريقة التصميم قد يؤدي إلى إعادة تعريف وتوضيح للمشكلة ومن ثم الدخول في حلقة جديدة من الفحص والتحليل.

إن عملية التصميم ليست عملية خطية وإنما هي جدلية ديالكتيكية dialectic. فهي تأخذ شكل تساؤل مستمر وأخذ ورد ما بين المشكلة المطروحة والحلول المحتملة. يقول براين لوسن Brian Lawson: "يتضح من التحليل لطبيعة المشاكل التصميمية أنه ينبغي على المصمم بذل جهود مضنية وطاقات معتبرة أثناء تعريفه للمشاكل التي تواجهه. يقوم جوهر التفكير الحديث على الاعتقاد أن المشاكل والحلول تولد معا في نفس الوقت، وليس بشكل متتابع منطقياً، أي الواحدة تلو الأخرى".[23] انطلاقاً من هذا الرأي في التصميم فإن طبيعة المشكلة تزداد وضوحاً كلما تطورت العملية التصميمية وتوغلنا فيها. ويقول لوسن Lawson أيضاً: "ما دام إيجاد المشاكل وتوليد الحلول لا يمكن اعتبارهما بالأساس أنشطة منطقية، فإن المطلوب من العملية التصميمية هو أن تنتج تفكيراً مبدعاً خلاقاً على أعلى مستوى".[24] إن أي تصميم، بما في ذلك التصميم العمراني هو عملية تفكير إبداعي وخلاق. وإنه لمن السذاجة البالغة الاعتقاد بأن ذلك لا ينسحب أيضاً على التفكير العلمي، تماماً كما هو ساذج التفكير في أن الحلول التصميمية لا يمكن أن تولد من خلال الاستنتاجات المنطقية للنظريات أو

الاستنباط من المعلومات والأدلة. فالبحث في المشكلة وفحصها هو من نتائج العملية التصميمية ذاتها. لكن يمكن القول أن المصمم يقوم ببحث طبيعة المشكلة من خلال فحصه للحلول أو لأجزاء منها وتمحيصه لها.

إذا كانت النظريات مصدراً أساسياً للأفكار في التصميم العمراني، فإنها ليست الوحيدة في ذلك. فيمكن توليد الأفكار بأساليب أخرى غير التعليل المنطقي أو الاستنباطي. فغالباً ما يلجأ الفنانون والمصممون لعملية المشابهة والمماثلة في أعمالهم. فالتشبيه هو أحد الأدوات المفيدة للفنان المبدع. ذلك أن التشبيه يمنح المصمم تقنية مناسبة للتغلب على حالات الانحباس الفكري وتوقفه.

فهو إذا طريقة لبعث التفكير وانطلاقه من جديد بدل انتظار الاستلهام لإيجاد طرائق جديدة للنظر في القضية. يقول دو بونو De Bono "أن الفائدة الكبرى للتشبيهات تكمن في كونها حاملاً للوظائف والأساليب والعلاقات التي يمكنها أن تُحوَّل بعدئذ لمشكلة قيد الدراسة".[25]

كما يمكن توليد الأفكار أو المفاهيم المستعملة في التصميم العمراني بالرجوع إلى النظرية العامة عن طريق الاستنتاج أو من الحقائق على الأرض بواسطة عملية الاستنباط المنطقي. ويمكن أيضاً إنتاج الأفكار عن طريق التفكير العرضي، وقد يتم تقييم هذه الأفكار لاحقاً باستخدام تقنيات المنطق وأدواته. كل هذا يبدو في غير متناول الإنسان العادي، فكيف يمكن إذا مع إشراك المجتمع بأفراده العاديين في مثل هذه العمليات؟ عند أي نقطة من مراحل عملية التصميم والتطوير إذاً، يمكن إدراج الناس العاديين وإشراكهم في العملية؟

إن مفاهيم المعماري العظيم و"الفكرة الكبيرة" التي تحدد توجهات التيارات المعمارية قد تغلغلت في المهنة وهيمنت عليها. ويبدو أن المخطط لا يزال يرفض التنازل للإنسان العادي عن مهمة مراقبة وضبط الجزء الإبداعي في صناعة المخططات. فالاعتقاد السائد لدى المخططين أن مهمة البحث عن البدائل والحلول وبالتالي توليد

الأفكار يجب أن تبقى رهينة أصحاب المهنة من المختصين. فمباشرة عملية التصميم انطلاقا من الأسس النظرية والمفاهيم المجردة سيعطي المتخصصين الذين درسوا الأمر لفترة طويلة واكتسبوا الخبرة فيه لسنوات، سيعطيهم الأفضلية على غيرهم من الناس العاديين. فإذا ما كانت هناك رغبة لإدراج أي نوع من المشاركة الشعبية فلا بد من التخلي عن هذه المفاهيم التي يضطلع بها المتخصصون ويتفوقون فيها.

ثم إن الرجل العادي يمتلك خبرة ومعرفة خاصة به أيضاً. فهو خبير في شئون عائلته واحتياجاتها وتطلعاتها. فهذا نوع من المعرفة المتخصصة جداً في قضايا الإسكان والتعليم والرعاية الصحية والخدمات الترفيهية التي تحتاجها العائلة ولها القدرة على تحمل نفقاتها. وفوق كل هذا فإن هذه القضايا هي الشغل الشاغل للرجل العادي يومياً، وهو أقدر الناس على إعطاء معلومات وأفكار أدق عن احتياجات جيرانه أيضاً، وبالتالي فهو الأكثر معرفة وخبرة بمشاكل الحي الذي يسكنه. فالمتخصص حين يقوم بإجراء مسوحات حول احتياجات المستخدمين، يقوم بتقدير هذه المعرفة بمصطلحات خام في وصف معرفته، في حين أن معرفة الرجل العادي في هذا المجال تكون مباشرة وتلقائية ومن مصدرها الأول. وللإنسان العادي أيضاً أفكاره وتصوراته عن أساليب الحلول الممكنة للمشاكل التي يعيشها في محيطه كما يعرف كيف يستثمر هذه الحلول. ولتعزيز هذا الرأي فإنه يكفي ملاحظة مشاريع إسكان البناء الذاتي بمدن دول العالم الثالث أو الرجوع إلى أصول التجمعات البشرية التي أنشئت دونما مساعدة من المهنيين والمتخصصين.[26]

لتحقيق أقصى استفادة من هذه التجربة الغنية، فإنه ينبغي مباشرة عملية التصميم إما بفحص المشكلة والسماح للمجتمع بعرض مشاكله أو بطرح الحلول للمشاكل التي يعرفها أفراد المجتمع جيداً، ومن ثم دراسة هذه الحلول وتقييمها. فالتجارب المستقاة من كل من بلفاست Belfast ونوتنغهام Nottingham ونيوارك Newark تؤكد أن لدى السكان القدرة التامة على تنظيم المسوحات الخاصة بهم واستخلاص الحلول التخطيطية والمعمارية.[27]

إن دور صاحب المهنة في التصميم المؤسس على مبدأ المشاركة الشعبية ليس دوراً هامشياً. بل على العكس من ذلك، فدوره سيكون أكثر حساسية وصعوبة حيث سيتطلب منه الصبر ومهارات حسن الاستماع. كما يتطلب من المصمم التحلي بالتواضع بحيث لا يتدخل بنصائحه وتوجيهاته إلا عندما يُطلب منه ذلك.[28] إن نصيحة المختصين في القضايا التقنية أساسية، وقد بينت التجربة أن السكان يحترمونها ويقدرونها. هذا لا يعني أن دور المختصين قد تم تضييقه لينحصر في المسائل التقنية وإنما عليه أن يقوم بمهمة التعليم أيضاً. فإذا كان الرجل العادي يقدم حلوله انطلاقاً من خبرته هو فقط، فإن المهني يمكنه أن يفتح الآفاق بعرضه لتجارب حالات كثيرة مشابهة. تبادل مثل هذه المعرفة مع الزبائن وإشراكهم فيها هو من صميم دور المختصين وهو أيضاً جزء أساسي في عملية المشاركة ذاتها.

إن معرفة وخبرة الرجل العادي بأمور التصميم والتخطيط خارج نطاق الحي الذي يقطنه تتضاءل كلما قل اهتمامه بهذه القضايا. وينبغي شرح هذه الأمور الأكثر شمولاً وانعكاساتها على الحي وتوضيح تأثيرها للمجتمع ، وهي أيضاً من المهام التي تُناط بأصحاب المهنة من المتخصصين. أما إذا ما أريد تحقيق مستوى أعلى من المشاركة فإنه ينبغي التركيز في عملية التخطيط والتصميم على المستويات الدنيا المحددة المساحة، صعوداً إلى المستويات العليا الأعم والأشمل. أي بتعبير آخر أن يبدأ العمل اعتباراً من مستوى الشارع إلى الحي صعوداً إلى المدينة فالإقليم وليس العكس. بهذا تصبح المستويات العليا في التخطيط عبارة عن مجموعة من المخططات على نطاق ضيق يتم التنسيق فيما بينها بحيث لا تسبب أي عائق أمام الخدمات الضرورية للمستويات العليا.

وعملية التنمية والتطوير الملائمة من الناحية الثقافية، قد تنتج أو لا تنتج عن التفكير العميق الخلاق للمصمم أو من الأسلوب الدقيق لمجموعة العملاء واحتياجاتها المجتمعية. لكن المؤكد هو أن الناس يرتبطون أكثر بمحيط يكون لهم يد في صياغته

وتجسيده. وعليه فإنه ينبغي وجود نطاق واسع من الأساليب وقائمة كاملة من التقنيات لتسهيل عملية المشاركة الفعالة في تطوير وتصميم البيئة التي يرغبها السكان ويستعملونها. وهذه الأساليب سوف تتباين حسب نوع النظام السياسي والإداري القائم وتبعا لامتداد وحجم الوحدة الفراغية التي يتم تصميمها وتخطيطها، وبحسب أسلوب التخطيط القائم والمرحلة التي وصلت إليها عملية التصميم ذاتها. وتكون المشاركة الشعبية عند مستوياتها القصوى إذا كان شكل نظام الحكم ديمقراطياً، ويتبنى مستويات للمشاركة عالية من المشاركة في العديد من الحقول الإدارية. وحيث يسود مبدأ لامركزية اتخاذ معظم القرارات، ويكون نمط التخطيط السائد هو أسلوب التخطيط التراكمي. حتى في مثل هذه الحالة المثالية، فإن أعلى مستويات المشاركة ستكون على مستوى النطاق الضيق لمجموعات العائلات التي تتجاور على مستوى الشارع، أو المجتمع الصغير الذي يسكن الحي. وفي مثل هذه المناطق السكنية بالذات، تكون معرفة عامة الناس وخبرتهم ذات أهمية قصوى في التخطيط والتصميم.

هوامش

Notes

1. HRH, the Prince of Wales. *A Vision of Britain*, Doubleday, London, 1989, p.80
2. Ibid, p.96
3. Rapoport, A. *House Form and Culture*, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1969
4. Shute, John. *The First and Chief Grounds of Architecture*, published by John Shute, printed by Thomas Marshe, London, 1563, Book IV, p.45
5. Ibid, Book I, p.14
6. *Architect's Journal*, 6 June 1984, p.30
7. See for example the work of Rapoport, A. *Human Aspects of Urban Form: Towards a Man Environment Approach to Urban Form and Design*, Pergamon Press, New York, 1977
8. Moughtin, J.C. and Shalaby, T. 'Housing design in Muslim cities: towards a new approach'. In *Low Cost Housing for Developing Countries*, Vol II, Central Building Research Institute, New Delhi, 1984, pp.831–851

9 Arnstein, Sherry R. A ladder of citizen participation. In *Journal of the American Institute of Planners*, Vol 35, No 4, July 1969, pp.216–224
10 Moughtin, J.C. *Planning for People*, Queen's University, Belfast, 1972
11 Davidoff, Paul. Working towards redistributive justice. In *Journal of the American Institute of Planners*, Vol 41, No 5, September 1975, pp.317–318
12 Eversley, David. *The Planner in Society*, Faber & Faber, London, 1973
13 Pateman, Carole. *Participation and Democratic Theory*, Cambridge University Press, Cambridge, 1970
14 Schumpeter, J.A. *Capitalism, Socialism and Democracy*, Allen and Unwin, London, 1943
15 Pateman, C. Op cit, p.7
16 Doxiadis, C.A. *Ekistics: An Introduction to the Science of Human Settlements*, Hutchinson, London, 1968
17 Moughtin, J.C. Public participation and the implementation of development. In *Town and Country Summer School Report*, London, Royal Town Planning Institute, 1978, pp.81–84
18 RIBA, *Architectural Practice and Management Handbook*, RIBA Publications, London, 1965
19 Markus, T.A. The role of budding performance measurement and appraisal in design method. In *Design Methods in Architecture* (eds. G. Broadbent and A. Ward), Lund Humphries, London, 1969
Mayer, T.W. Appraisal in the building design process. In *Emerging Methods in Environmental Design and Planning* (ed. G.T. Moore), MIT Press, Cambridge, Mass., 1970
20 Wallace, Walter. An overview of elements in the scientific process. In *Social Research: Principles and Procedures* (eds. John Bynner and Keith M. Stribley), Longman, Harlow, 1978, pp.4–10
21 Ibid (Figures 1.10, 1.11 and 1.12 are taken from Wallace)
22 Ibid
23 Lawson, Bryan. *How Designers Think*, Architectural Press, London, 1980
24 Ibid
25 De Bono, Edward, *Lateral Thinking*, Penguin, Harmondsworth, 1977
26 Moughtin, J.C. *Hausa Architecture*, Ethnographica, London, 1985
27 Moughtin, J.C. Markets areas redevelopment. In *Built Environment*, February 1974, pp.71–74
Moughtin, J.C. and Simpson A. Do it yourself planning in Raleigh Street. In *New Society*, 19 October 1978, pp.136–137
28 Gibson, Tony, People Power, Penguin, Harmondsworth, 1979